مدخل المحاضرة الاولى

الحضارة الاوربية في العصور الوسطى

بداية العصور الوسطى ونهايتها:

أطلق المؤرخون الاوربيون مصطلح (العصور الوسطى) على العصور التاريخية التي عاشتها اوربا منذ بداية القرن الرابع الميلادي حتى نهاية القرن الخامس عشر (٣٠٠-١٥٠٠) ،وحاول بعض المؤرخين تحديد بداية العصور الوسطى بسنة معينة جرت فيها احداث مهمة، كاعتراف الامبراطور قسطنطين الاول بالمسيحية في سنة٣١٣. او في نقله العاصمة من روما الى القسطنطينية في سنة ٣٣٠. او في تقسيم حكم الامبراطورية بين ولدي الامبراطور تيودوسيوس الول ـ اركاديوس واونوريوس ـــ في سنة ٣٩٥ او بسقوط عرش روما بيد ادواكر زعيم العناصر البربرية المرتزقة في الجيش الروماني في سنة ٤٧٦.

فسر تاريخيا اختلاف المؤرخين في تحديد نهاية العصور الوسطى الاوربية؟

حاول بعض المؤرخين تحديد نهاية العصور الوسطى بسنة معينة جرت فيها احداث مهمة كسقوط القسطنطينية بايدي الاتراك العثمانيين في سنة ١٤٥٣، او انتهاء حرب المائة عام بين فرنسا و انكلترا في سنة ١٤٥٣، او اكتشاف امريكا في سنة ١٤٩٢، او غيرها من الاحداث التاريخية المهمة.

ان تحديد بداية عصر تاريخي او نهايته بسنة معينة امر فيه مبالغة، لان التاريخ وحدة متكاملة لا تنقسم كهذا التقسيم الالي، كما ان العصور التاريخية متداخلة بعضها في بعض. فالتحولات التاريخية لا تتم بنطاق سنين معينة، وانما تحتاج الى فترة زمنية طويلة قد تشمل بضعة قرون، كما ان بعض معالم العصر السابق قد تظل سائدة في العصر اللاحق مدة طويلة جدا.

واذا كنا لا نسلم بتحديد سنه معينة لبداية العصور الوسطى في أوربا، فأننا نوافق على عد فترة القرنين الرابع والخامس الميلاديين بداية لتلك العصور. حيث جرت في تلك الفتره تطورات جذريه في النواحي: السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، والفكرية.

الناحية السياسية:

في القرنين الرابع والخامس سقطت اراضي الامبراطورية الرومانية بأيدي البرابرة الجرمانيين، الذين شكلوا فيها ممالك عديدة: كمملكة الفرنجه، ومملكة القوط الغربيين، ومملكة القوط الشرقيين، ومملكة الوندال وغيرها. وهكذا حلت الكثرة في مكان الوحدة اذ قامت الدول المتعددة في مكان الامبراطورية الواحدة. كذلك نقلت العاصمة الرومانية من روما الى القسطنطينية (في سنة ٣٣٠) وصار نظام الحكم في (بيزنطة) امبراطوريا وراثيا. وفي سنة ٤٧٦ سقط عرش روما بايدي البرابرة، فلم يجلس على ذلك العرش امبراطور روماني بعد ذلك التاريخ، وانما انتقلت السلطة السياسية والدينية في روما الى البابا (اسقف روما).

الناحية الاقتصادية و الاجتماعية:. في القرنين الرابع والخامس لم يعد العبيد يشكلون الطبقة الرئيسة التي تعمل في الزراعة والصناعة. كما كانت حالهم في القرنين الاول والثاني الميلاديين. لقد تناقص عدد العبيد نتيجة توقف الحروب الرومانية التوسعية. بالإضافة الى ذلك دفعت قلة مردود عمل العبيد كبار ملاكي الاراضي (البترون) الى توزيع اراضيهم الواسعة على عبيدهم ليعملوا بها بصفة كولون (معمر او فلاح مرتبط بالأرض) مقابل الحصول على حصة من إنتاجها. وهكذا ساد النظام الكولوني في العلاقات الزراعية، بعد ان كان يسود نظام العبودية في العصور

وقد تطور النظام الكولوني الى النظام الاقطاعي الذي ساد في اوروبا في العصور الوسطى. وقام الاقتصاد الزراعي في النظام الاقطاعي على استغلال طبقة اقنان الارض. وبدءا من القرن الرابع أخذت مدن اوروبا الغربية بالتدهور بنتيجة الغارات البربرية وتعطل الصناعة والتجارة. وتدريجيا ساد الاقتصاد الزراعي المغلق في اوروبا الغربية حتى المرحلة الاخيرة من العصور الوسطى (١٣٠٠-١٥٠٠) ميلادي، حتى نشأة مدن جديدة ذات طابع صناعي- تجاري.

الناحية الفكرية:

سادت في الامبراطورية الرومانية القديمة الديانة الوثنية القائمة على عبادة الهة عديدة وتقديس الامبراطور. أما في بداية القرن الرابع الميلادي فقد اعترفت السلطات الرومانية بالديانة المسيحية القائمة على عبادة اله واحد، ثم صارت المسيحية ديانة رسمية للإمبراطورية البيزنطية في نهاية ذلك القرن. كذلك انتشرت المسيحية في اوروبا الغربية وصارت تدريجا الديانة الوحيدة لجميع شعوب اوروبا. وقد طبعت التعاليم المسيحية بطابعها الحياة السياسية والفكرية والفنية وغيرها من المظاهر الحضارية.

كذلك نوافق على عد فترة القرنين الرابع والخامس عشر نهاية للعصور الوسطى في اوروبا. لان صورة العالم الاوربي التي ارتسمت خلال المرحلة الاولى والثانية من العصور الوسطى (٣٠٠-١٠٠٠-١٣٠٠) تبدلت ملامحها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية في تلك المرحلة.. اي في المرحلة الثالثة والاخيرة من العصور الوسطى (١٣٠٠-١٥٠٠) ميلادي.

الناحية السياسية:

ادى سقوط القسطنطينية بيد الاتراك العثمانيين في سنة (١٤٥٣) الى زوال امبراطورية اوروبية مسيحية. فحلت في مكانها امبراطوية اسيويه اسلامية. تختلف عن سالفتها بنظمها وتقاليدها وعقائدها. كذلك ادت حرب المائة عام بين فرنسا وانكلترا الى نشوء حركه قومية في كل من البلدين. ما لبثت ان انتشرت في البلدان الأوروبية الاخرى. مما ادى الى تشكل دول قومية عديدة. وتغلب فكرة تعدد الممالك القومية على فكرة الوحدة الامبراطورية. بعد ان سئم العالم الاوروبي من البحث عن وحدة لا يمكن تحقيقها.

الناحية الاقتصادية – الاجتماعية:

في القرنين الرابع عشر والخامس عشر ارتسمت صورة جديده للعلاقات الاقتصادية –الاجتماعية ،أذ انقلب الزراعي ولاكتفائي المغلق (الذي ساد في المرحلتين الاولى والثانية مِـْن العصور الوسطى ٣٠٠-١٣٠٠)اقتصادا صناعيا - تجاريا ينزع إلى الرأسمالية والمبادلة السائدة . واسهم في تطور الاقتصاد الصناعي -التجاري اكتشاف الطرق البحرية المؤدية الى امريكا والهند والصين - . الناحية الفكرية :في المرحلتين الاولى والثانية مِـْن العصور الوسطى (٣٠٠-١٠٠٠-١٣٠٠)احتكرت الكنيسة المسيحية الثقافة الأوربية ، فحاربت المفاهيم العلمية والافكار الحرة التقدمية ، التي تتعارض مع مصالح الطبقة الإقطاعية . اما في القرنين الرابع عشر والخامس عشر فقد دحرت الكنيسة المسيحية امام الافكار العلمية في المجالات السياسية والفكرية والفنية والاقتصادية .لقد قامت الحركه الإنسانية ببعث الثقافة الكلاسيكية (اليونانية والرومانية)،كما شرع الادباء والفلاسفة والعلماء يهاجمون الافكار الدينية الرجعية وليدة العلاقات الإقطاعية .كذلك اخذت الات الطباعة تنشر الافكار الجديدة التقدمية وليدة العلاقات البرجوازية. وتلك الملامح الحضارية تنم عن ولادة عصور تاريخيه جديده وهي العصور الأوربية .

((متى ظهر الوسطى)) لماذا ؟

اول من استعمل مصطلح العصر الوسيط هم الادباء الانسانيون والايطاليون في القرن الخامس عشر والسادس عشر ،ثم شاع مِنْذآ الاصطلاح حتى الوقت الحاضر .لقد كان الانسانيون الايطاليون ، وبخاصه بترارك ،معجبين جدا بثقافه الكلاسيكية (اليونانية والرومانية)،فعملوا علّئ احياء تلك الثقافة .كذلك اطلقوا علّئ العصر الذي عاشوا في اسم :((عصر النهضة)) ،لأنه امتاز ببعث التراث الكلاسيكي القديم .اما المرحلة التاريخية

الممتدة منذ سقوط عرش روما بأيدي البرابره (في سنة ٤٧٦)حتى عصر النهضة ،فكانوا يعدونها مرحله تأخر وانحطاط ،سادت خلالها حضارة بربريه باهته، وضمت فيها معالم الحضارة الكلاسيكيه الرائعة .وعلى ذلك كانت العصور الوسطى ،برأيهم ،((عصورا مظلمه)) ومتخلفة في شتى المجالات .لَـكِنْ تلك النظرة القاتمة الى العصور الوسطى اخذت تتبدل مع الزمن في اعين بعض المفكرين الاوربيين، الذين تلمسوا في تلك العصور حضارة جديده مبتكره ، واخذوا يظهرون ويوضحون ملامح صورتها الحضارية للقراء والباحثين . وسنحاول بدورنا توضيح الملامح الحضارية للعصور الوسطى الأوروبية بحوث مِنْذآ الكتاب.

مراحل العصور الوسطى

لم يمر عالم العصور الوسطى في اوروبا علّئ وتيره واحده ولا يمكننا القول ان الناس الذين عاشوا في تلك المرحلة التاريخية الطويلة (الممتدة بين سنتي ٣٠٠-١٥٠٠)قد ساروا علّئ نظام واحد لقد كانت أحوال هؤلاء الناس تتطور تدريجيا وتتبدل مع مرور الزمن .وعلى ذلك قسم بعض المؤرخين تاريخ العصور الوسطى الى ثلاث مراحل رئيسيه لكل منها ما يميزها عن غيرها ،مع بعض التجاوز في الزمان والمكان .

المرحله الاولى :وهي المرحلة التي امتدت سبعة قرون-منذ بداية القرن الرابع حتى نهاية القرن العاشر (٣٠٠-١٠٠٠)-.ففي تلك المرحلة قضي البرابرة الجرمان علّئ الإمبراطورية الرومانية في الغرب الاوربي ، كما قضوا علّئ نظمها وحضارتها وتقاليدها ،ثم اقاموا علّئ انقاضها ممالك جرمانيه جديده لِـهآ انظمه خاصه وحضارة مغايره . وبذلك الحدث الكبير تنطوي صفحة التاريخ القديم ويبدأ عصر جديد في تاريخ أوروبا هو العصر الوسيط . لَـكِنْ بداية ذلك العصر كانت سيئة في وسط الفوضى التي اثارتها الغزوات البربرية المدمرة في انحاء الغرب الاوروبي كافه . وعلى ذلك قال المؤرخ إدوارد جيبون:انه كان في حكم المستحيل ان تحرز الإنسانية أي تقدم في ذلك العهد المضطرب كذلك اطلق المؤرخ: و -ب - كير على القرون الأولى من العصور الوسطى اسم :«العصور المظلمة »ويأخذ بهذا

الرأي كثير من المؤرخين المعنيين بتاريخ تلك المرحلة من تاريخ أوربا . ففي تلك المرحلة انطفأت شعلة الحضارة الرومانية القديمة الزاهرة ،اذ سحب نور العلم والمعرفة وأحاطه بالحياة الفكرية ظلام كثيف يتخلله بصيص من شعاع خافت يحتوي بقايا تراث لاتيني ذابل ،كان للكنيسة الرومانية الغربية دور في الا بقاء عليه داخل جدرانها ،خدمة لأهدافها الدينية فحسب .ومع ذلك فقد خلف لنا ذلك البصيص عددا من آباء الكنيسة الأول ،الذي تكشف مؤلفاتهم عن سمات الثقافة التي ارتبطت بالمسيحية وفلسفتها ،وبالكنيسة وتعاليمها في ذلك العصر المبكرة. استمرت حالة الظلام الفكري طوال القرون الخمسة الاولى من العصور الوسطى. ولكن في بداية القرن الثامن ظهرت نهضه فكريه مبكرة متواضعة في أيرلنده وإنكلترا ارتبطت بشخصين هما :(بيده والكوين)أكثر من ارتباطها بالعصر. وفي بداية القرن التاسع ظهرت نهضة فكريه أخرى ارتبطت بإمبراطور الفرنجة الكرلونجيه شارلمان . لكن تلك النهضة اخذت تنحسر في عهد خلفائه ،بسبب انقسام إمبراطوريته الى ممالك وأمارات متصارعة فيما بينها. ومع ذلك كله ،فقد تمت في المرحلة الاولى من العصور الوسطى (١٠٠٠-٣٠٠) عملية انصهار الحضارة الرومانية القديمة وتمازجها مع حضارات الشعوب الجرمانية ،التي تدفقت على اوربا الغربية واستوطنت فيها ،بجانب العناصر الرومانية وغيرها من الشعوب القديمة.

-المرحلة الثانية :.، امتدت تلك المرحلة ثلاثة قرون -منذ بداية القرن الحادي عشر حتى نهاية القرن الثالث عشر(١٣٠٠-١٠٠٠) - في تلك المرحلة جرت الحروب «الصليبية» الاستعمارية التي شنتها أوربا الغربية بزعامة البابوية على المشرق العربي والإسلامي .كذلك نما فيها ورسخ النظام الاقطاعي ونظام الفروسية .وفي القرن الحادي عشر بدأ الفكر. الأوربي ينطلق من عقاله ،محاولا الخروج من دائرة الجمود الفكري المغلقة التي عاش أسيرا فيها قرونا عديدة . وكانت النتائج طيبة تمثلت بظهور الفكر الحر والفلسفة المدرسية مما هيأ الاوضاع لظهور نهضة القرن الثاني عشر المعرفة بالنهضة العلمية الأولى. وقد دعا رواد تلك النهضة ،وبخاصة أبيلارد ،الى تحرير الفكر والعودة الى التراث الكلاسيكي القديم (اليوناني والروماني).وبنتيجة الجهود العلمية المستمرة نشأت الجامعات لتقوم بدور بارز في نقل الغرب الأوربي من عصر الجهل والظلام ،إلى عصر العلم والنور الذي وضحت معالمه في عصر النهضة القادمة -أي في القرنين الخامس عشر والسادس عشر . وتلك النهضة مهدت الطريق للعصر الحديث ومدنه الزاهرة. لكن الكنيسة البابوية وجدت في نهضة القرن الثاني عشر الفكرية والمذاهب الفلسفية الجديدة خطرا يهدد كيانها ،ولذا قاومتها بجميع الوسائل ،بما في ذلك أسلحتها التقليدية ،اذ أخذت تضم كل من يخرج على تعاليمها بالهرطقة وتوقع عليه قرار الجرمان. وكان على رأس هؤلاء «الهراطقة »الفيلسوف (ابيلارد)وتلميذة «اللومباردي». يتضح مما تقدم ان

اوربا في المرحلة الثانية من العصور الوسطى (١٣٠٠-١٠٠٠) قد دخلت مرحلة التكوين ،وأن حضارتها بدأت تأخذ شكلا متميزا يختلف عن المرحلة الاولى.

-الْمُرَحَلة الْثَّالُثَّة : تنحصر تلك المرحلة في القرنين الرابع عشر والخامس عشر (١٥٠٠-١٣٠٠) .في تلك المرحلة تغير تفكير الناس في قضايا عديدة : فبالنسبة لنظام الحكم ،أخذت شعوب أوربا تنظر الى الملك على انه راس الدولة ،بعد أن كان رأس الاقطاع ،كما طالبته بتحديد سلطانه، مما ادى إلى ظهور البرلمانات . كذلك أخذت تلك الشعوب تهتم بأمور دولها القومية، وزالت الأفكار القديمة التي كانت تنظر إلى أوربا كدولة واحدة يحكمها إمبراطور واحد وكنيسة واحدة بزعامة البابوية .ومما يؤكد تفكك الوحدة الأوربية استخدم اللغات الوطنية المحلية في الكتابة والتعليم ، بعد أن ظلت اللاتينية قرونا عديدة اللغة الوحيدة في العلم والمعرفة .أما بالنسبة للقضايا الدينية، فقد خاضت الكنيسة البابوية في المرحلة الثانية من العصور الوسطى (١٣٠٠-١٠٠٠) صراعا مريرا مع أباطرة الامبراطورية الرومانية المقدسة التي ضمت ألمانيا وإيطاليا ،بسبب محاولة كل من السلطتين الدينية والدنيوية إعلاً شأنها على حساب الأخرى. وعلى الرغم من أن البابوية حققت بعض الانتصارات على السلطة الامبراطورية الزمنية، إلا أن تلك الانتصارات كانت تحمل بين طياتها بذور التدهور والخذلان ، إذ خرجت البابوية على رسالتها الروحية في محاولتها فرض سيادتها على الأمر و الأباطرة والملوك ، فأثارت بذلك الشكوك حول قدسيتها ، وبدأ الناس ينقضون من حولها . وعلى ذلك تزعزع مركز البابا والكنيسة البابوية في المرحلة الثالثة ولأخيرة من العصور الوسطى (١٣٠٠- ١٥٠٠) ، كما هاجمها الناس في مواضع عديدة ، وهذا ما لم يكن مألوفا في المرحلة السابقة . ومن الناحية الاقتصادية ـ الاجتماعية ،أخذ النظام الاقطاعي بالزوال في المرحلة الأخيرة من العصور الوسطى ، في حين تطورت المدن الصناعية ـ التجارية ، وتشكلت الطبقة البورجوازية، التي صار لها الدور الأول في الحياة الاقتصادية والساسية. ومما ساعد على تطور الاقتصاد الصناعي ـ التجاري اكشاف الطرق البحرية المؤدية إلى أمريكا والهند والصين.